حين تهزِم فطنةُ المرأةِ ذكاءَ" الجاحظِ"... وغيره من ذوي الرّأي والحكمة .

سامية الدريدي
مديرة مدرسة الدكتوراه بكليه العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس، جامعة تونس

يُعدّ كتاب " أخبار الأذكياء " لأبي الفرج بن الجوزي من

ذخائر العرب ونفائس التّراث، إذ تحدّث فيه صاحبه بإسهاب وتفصيل عن "العقل"، و"ملكة الفهم " وخاض باقتدار في شأن "الذّكاء " . كما عرض فيه أخبار فئات مختلفة من النّاس من حيث المشارب،والثّقافة ونمط الحياة، والجامع بينهم واحد وهو " الذّكاء" .ففي الكتاب نجد أخبار الأمراء، والوزراء،و الفقهاء، والقضاة، والعوامّ رجالا ونساء. وفيه، دوّن ابن الجوزيّ كلّ ما عُرفوا به من أفكار ألمعيّة، أو ما نُقل عنهم من حججٍ نافذة،أو مُلَحٍ طريفة .فجاءت الأخبارُ- كما يعكسها عنوان الكتاب – دالّة على ذكاء أبطالها، وسرعة بديهتهم، وفطنتهم التّي تُفحم الآخرين وتُعجزهم .لاسيّما وقد عرّف ابن الجوزي الذّكاء بقوله " وحدّ الذّكاء جودة حدْسٍ من هذه القوّة (أي الذّهن) يقع في زمان قصير غير مُمْهِلٍ،فيعلم الذّكيّ معنى القول عند سماعه , وقال بعضهم: حدّ الذّكاء سرعة الفهم وحدّته، والبلادة جمود الفهم ."[9]

ومن هذا الكتاب الطّريف والمهمّ في آن واحد، انتقينا ثلاثة نصوص قصيرة، بليغة تُظهِر جميعُها فطنةَ المرأة وتشهدُ لها بذكاءٍ عاطفيّ وقّاد .فأمّا النصّ الأوّل، فيقول فيه ابن الجوزي: " وقفت امرأة قبيحة على عطّار ماجنٍ، فلمّا نظر إليها قال: " وإذا الوحوش حُشِرت ." فقالت: " وضرب لنا مثلا ونسي خلقه "[10]

فالمرأة هاهنا، قد أدركت بفطنتها مقصد العطّار السّاخر من قبحها حين استعار لها –مستلهما القرآن - صورة الوحش الذّي سيُحْشَر مع بقيّة الوحوش يوم القيامة، فكان أن ردّت عليه بآية أخرى تذكّره بقبحه هو، فأفحمته .

وأمّا النصّان الآخران، فقد رواهما" ابن الجوزيّ" عن" الجاحظ "، وهو من هو في الذّكاء والبلاغة، ومع ذلك هزمته المرأة في خبرين أقرّ فيهما بفطنتها التّي فاقت ذكاءه . يقول "الجاحظ": " رأيت بالعسكر امرأةً طويلة القامة جدّا، ونحن على طعام، فأردت أن أمازحها فقلت: "انزلي حتّى تأكلي معنا " قالت: "وأنت فاصعد حتّى ترى الدّنيا "[11]

وقال الجاحظ في النصّ الثّاني: "رأيت جارية بسوق النخّاسين ببغداد يُنادى عليها، وعلى خدّها خالٌ، فدعوت بها وجعلت أقلّبها فقلت لها: "ما اسمك ؟ " قالت: " مكّة " فقلت لها: "اللّه أكبر، قرُب الحجُّ، أتأذنين أن أقبّل الحجر الأسود ؟ " فقالت إليك عنّي، ألم تسمع قول اللّه تعالى " لم تكونوا بالغيه إلّا بشقّ الأنفس ؟ "[12]

ففي النّصوص الثّلاثة أظهرت المرأة ذكاء عاطفيًا، هو حدْسٌ وسرعة فهم، به أدركت مقاصد المتكلّم، وبه ردّت عليه كلامه وقلبت عليه برهانه – إن رمنا تعبيرا حجاجيّا – فكان صمته دليلا قاطعا على إقراره لها بالغلبة . ولئن كان الخبر الأوّل الدّال على فطنة النّساء في علاقة بشخصيّة مجهولة لا نعلم من أمرها سوى وظيفتها (أي عطّار)، فإنّ الخبرين الموالين بطلهما "الجاحظ": الأديب الموسوعيّ الثّقافة، والمعتزليّ ذو الرّأي الثّاقب، وهو إذ يُهزَم بنفس سلاحه، فإنّما يكون في ذلك الحجّة الكافية والتّي تثبت للمتلقّي فطنة المرأة وسرعة بديهتها . فإن عرّض بطولها، عرّضت بقصره، وإن تودّد إليها بمعنى دينيّ، صدّته بآية، وفي ذلك،كما نرى، منتهى البلاغة .

[9] أبو الفرج بن الجوزي ، "أخبار الأذكياء " ، تحقيق بسّام عبد الوهاب الجابي ، ط 1، دار ابن حزم ، 2003 ،ص 38

[10] المصدر نفسه ، ص 86

[11] المصدر نفسه ، ص 86

[12] المصدر نفسه ، ص 138

وما الجاحظ في هذه الأخبار إلّا حجّة لصالح فطنة المرأة وبلاغتها في آن واحد، وإن كنّا ندرك أنّ المطّلع على كتب التّراث يعلم علم اليقين أنّه ليس أوّل من أفحمته امرأة أو عرّضت به بمنتهى الذّكاء والفطنة، ولا نتوقّع مطلقا أن يكون آخرهم . فحسبنا أن نذكّر بالقصّة التّي تناقلتها المصادر حول الخليفة عمر بن الخطّاب وقد خطب في النّاس ذات يوم آمرا بتخفيف المهور في الزّواج منكرا أشدّ الإنكار المغالاة فيها بل محدّدا للمهر سقفا لا يتجاوزه وهو أربعمائة درهم ، فلمّا فرغ من خطبته هاب النّاس أن يكلّموه، فقامت امرأة

معترضة على فتواه لتقول : "أيعطينا اللّه وتحرمنا ؟ " تقصد قوله تعالى: " وآتَيْتُم إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلاَ تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا" والقنطار هنا مال كثير، فأدرك عمر صواب رأيها وأذعن لحجّتها مقرّا بفطنتها فقال قولته الشّهيرة: " أصابت امرأة وأخطأ عمر " .13

وبعده بزمن، "أُتِي الحجّاج بامرأة من الخوارج فقال لأصحابه ما تقولون فيها ؟ قالوا: عاجِلْها بالقتل أيّها الأمير . فقالت الخارجيّة: لقد كان وزراء صاحبك خيرا من وزرائك يا حجّاج . قال: ومن هو صاحبي ؟ قالت: فرعون، استشارهم في موسى عليه السّلام فقالوا "أَرْجِئْه وأَخَاهُ 14"

فالخارجيّة بفطنة وسرعة بديهة، جعلت الحجّاج بن يوسف الثّقفي والي العراق، فرعون زمانه في جوره وجبروته، ولكنّها جعلت حاشيته ووزراءه أسوأ من حاشية فرعون ومستشاريه، لأنّهم أشاروا بالتّعجيل في قتلها دون محاكمة أو نظر، في حين أشار وزراء فرعون بعدم التعجّل في شأن موسى وهارون وإرجاء الحكم في شأنهما، للنّظر والتدبّر . وهذه الخارجيّة ببلاغتها وفطنتها وهي تقف أمام الحجّاج موقف الذّي يُساق إلى الموت ومع ذلك تعرّض به وبوزرائه، تذكّرنا بإحدى نساء البرامكة بعد نكبتهم المعروفة وهي تقف

أمام هارون الرّشيد في مجلسه توبّخه وتدعو عليه ببلاغة وذكاء عجيبين، معتمدة في ذلك أسلوب "التّورية"، ولكنّ الخليفة أدرك مقاصدها في حين عجز جلاّسه عن فهمها،عجز الحجّاج عن معرفة صاحبه في قول الخارجيّة المذكور . فقد "دخلت امرأة على هارون الرّشيد، وعنده جماعة من وجوه أصحابه، فقالت يا أمير المؤمنين: أقرّ اللّه عينك، وفرّحك بما أتاك، وأتمّ سعدك، لقد حكمت فقسطت .

فقال لها: من تكونين أيّتها المرأة ؟

فقالت: من آل برمك، ممّن قتلت رجالهم، وأخذت أموالهم، وسلبت نوالهم .

فقال: أمّا الرّجال فقد مضى فيهم أمر اللّه ونفذ فيهم قدره، وأمّا المال فمردّه إليكِ .

ثمّ التفت إلى الحاضرين من أصحابه، قال: أتدرون ما قالت هذه المرأة ؟

فقالوا: ما نراها قالت إلاّ خيرا.

قال: ما أظنّكم فهمتم شيئا، أمّا قولها " أقرّ اللّه عينك "أي أسكنها، وإذا سكنت العين عن الحركة عميت، وأمّا قولها "فرّحك بما أتاك"، فأخذته من قوله تعالى: " حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً "، وأمّا قولها: " وأتمّ اللّه سعدك " فأخذته من قول الشّاعر:

إِذَا تَمَّ أَمْرٌ بَدَا نقْصُه تَرَقَّبْ زَوَالاً إِذَا قيلَ تمّْ

وأمّا قولها: "حكمت فقسطت فأخذته من قوله تعالى "وَأَمَّا القَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا "15

كلّ هذه الأخبار وغيرها، إذ تؤكّد فطنة المرأة وسرعة بديهتها وبلاغتها، فإنّها غيض من فيض وقطرة من بحر، لأنّ كتب الأدب القديم حفلت بأخبار وقصص دارت جميعها حول مكر النّساء وكيدهنّ، بل حول حيلهنّ ودسائسهنّ ... وحسب القارئ أن يتصفّح "ألف ليلة وليلة " ليجد طرائف الخدع، وعجائب الحيل النّسائيّة . فالمرأة متى وظّفت فطنتها وذكاءها في استجلاب منفعة أو تحقيق غاية – حقّا أو باطلا – رأينا منها مكرا وحيلة، لا يسلم منهما ذوو الرّأي وأصحاب السّلطان.

[13] انظر مثلا : ابن الجوزي ، "المنتظم في مناقب عمر بن الخطّاب رضي الله عنه "

[14] شهاب الدّين محمّد الأبشيهي (ت 850 للهجرة) ، "المستطرف في كلّ فنّ مستظرف "، تحقيق خير طعمه الحلبي ، ط 5 ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، 2008 ، ص 89 .

[15] سحر النّاجي ، الذّاء والدّواء في أخبار النّساء ، ط 1 ، 2005 ، دار الحضارة للنّشر والتّوزيع ، ص ص 143-144